المصدر: روزاليوسف
التاريخ : ١٩٩٥/٥/١٥

أسئلة لاتريد الإجابة

إبراهيم عيسى

ساحاول ان اكون مختصراً ومباشراً وبسيطاً ، رغم ان السادات لم يكن كذلك إطلاقاً ، ولم تكن حياته هكذا ابداً ..

كما ان الحديث حوله وعنه معقد و« ملعبك » فى الغالب إلا اننى سالتزم بما وعدتكم به (فى زمن لم يعد الوفاء بالوعد من شيم احد)

منذ أغسطس ١٩٩٤ ، وأنا أعكف
على قراءة كل الكتب السياسية التى تناولت تاريخ السادات وحياته
لكتابة أول فيلم سينمائى مصرى
عن « السادات » . . وهذا المقال كتبته على هامش ٣٢ كتاباً عن السادات !!

هناك دائما مقولات معدة واتهامات جاهزة سلفاً توجه للسادات ، واهمها ان السادات ظل طيلة حياته فى صحبة جمال عبدالناصر منافقاً ، ساكتاً ، صامتاً ، مكث فى الظل دوماً : ولم يعارضه على الإطلاق .

والإجابة .. حسناً ومن هذا ، البطل ، الذى عارض عبدالناصر !!

ومن هم الرجال الذين لم ينافقوا الرجل ، ولم يعيشوا فى كنف سيادته ، وكنف سياسته صامتين موافقين ..؟!

من هم هؤلاء .. اشيروا لنا عليهم من فضلكم !! كذا .. من هم الذين عاشوا فى ، الضوء ، اثناء حياة عبدالناصر ، وهل كانت هناك قطعة ، ضوء ، باقية بعيدة عن عبدالناصر .

لا اعنى بذلك ـ لا سمح الله ـ ان الزعيم الراحل جمال عبدالناصر كان ديكتاتوراً : ولكن اعنى انه لم يكن نظامنا السياسى ديمقراطياً : بل كان فردياً وشمولياً ومتجسداً فى شخص واحد (هو الرئيس طبعاً) الذى يحكم وينفرد بالحكم ومن حوله حواريون .. يستانس بهم لا اكثر ، ولا اقل .

نعم .. لم نضبط السادات ـ ولا غيره ايضاً وهذا بيت القصيد ـ يتخذ موقفاً معارضاً ومختلفاً وجذرياً ضد عبدالناصر منذ صار جمال عبدالناصر الزعيم الملهم ورمز الأمة وقائد العروبة .. حتى فيما بعد ١٩٦٧ ، خرجت جماهير الطلبة تطالب بمحاكمة المسئولين ، بينما زملاء المسئولين لم ينطقوا ..

ثم ياتى الاتهام الاخر لانور السادات ، إنه جاء للحكم بالصدفة ، والسؤال الخارق الحارق لماذا اختار عبدالناصر السادات لمنصب النائب ؟!

اما حكاية الصدفة فهى نكتة : وخاصة ان السادات لم يكن رئيساً لنادى الشمس مثلاً ، وفوجىء بتعيينه نائباً لرئيس الجمهورية ، بل كان وطيد العلاقة بالحكم وعميق الصلة بثورة يوليو ونظامها السياسى ، ثم كيف تاتى الصدفة مع تعيينه

عام ١٩٦٨ . نائباً لرئيس الجمهورية وتولى الرئاسة بعدها بعامين . فهل يجوز استمرار صدفة لمدة عامين ؟! من المؤكد ان عبدالناصر لم يكن نائماً او غافلاً او ناسياً لحادثة مهمة في الحكم . انه عين السادات نائباً !!

اما لماذا اختاره عبدالناصر اصلاً . فهذا سؤال لطيف شغل مساحات مطولة من الكتب والمقالات والندوات : ومن الإجابات الشهيرة هنا ان عبدالناصر كان يريد تحسين علاقته بامريكا فجاء بالسادات : او انه - في رواية اخرى - كان يريد تهديد الروس بوجود عميل امريكي بجواره . وفي رواية ثالثة لانه كان معرضاً لحادثة اغتيال في المغرب قبل سفره . فاسرع بتعيين السادات (ربما لانه خرزة زرقاء مثلاً سوف تحميه من الاغتيال) .

والإجابة عندي ابسط واسهل ان عبدالناصر اختاره لهذا المنصب لان السادات ببساطة كان الافضل بين رجاله .

الكل يحاول الهروب من هذا .. والإجابة : ان السادات كان افضل رجل حول عبدالناصر : لذلك اختاره الاخير .

والسادات كان الافضل من جهات عدة . انه الاكثر خبرة والادهى سياسة والاعلى إمكانات . والاوسع إدراكاً لما حوله في العالم ومصر . والانشط في معرفة خبايا وخفايا السلطة ومؤامراتها . كما انه الاكثر إخلاصاً وحباً لعبدالناصر (هكذا كان يتصور عبدالناصر . وهكذا كان السادات فعلاً حتى . فقعوه . بحكاية انه اقل من عبدالناصر فكرهه فيما بعد في زعمي !!) .

ثم تبرز القصة الاطرف والاكثر غنى . قصة ١٥ مايو ١٩٧١ . ودعك من كل التسميات الفارغة الخاصة بانها كانت ثورة او حركة او ما إلى ذلك . لكنها كانت - في الاول وفي الاخر - صراعاً حول السلطة .. انتصر فيه باكتساح السادات . واظن ان الله كان يحب مصر ويرعاها بان انتصر في هذا الصراع انور السادات !!

لماذا ؟!

سنجيب بعد ان نسال سؤالاً اخر . لماذا انتصر السادات في هذا الصراع ؟!

اولاً . لم تكن المجموعة الحاكمة المناهضة للسادات في هذه الفترة مجموعة رائعة مدهشة

عظيمة رهيبة نبيلة ، لم يكونوا مجموعة من الملائكة اختارتهم العناية الإلهية من أجل عيون مصر (هناك خلاف اخر حاد هل عيون مصر سوداء ام عسلية ام خضراء) ، بل كانوا مجموعة من رجال السياسة

ولحسن الحظ انهم كانوا رجالاً يمارسون سياسة السلطة ونفوذها ولعبتها باقل قدر ممكن من الذكاء واكبر قدر ممكن من السذاجة ، فهل تتصور ان مجموعة مكونة من رئيس تنظيم سياسى شعبى (المفروض انه شعبى) اسمه الاتحاد الاشتراكى (طبعاً كان تنظيماً مثيراً للسخرية والفكاهة واجمل من مسرحيات عادل إمام) ، وتنظيم اخر طليعى سرى (للتدليل على السذاجة والصفاقة ان كان وزير الداخلية هو السكرتير العام لهذا التنظيم السرى .. اضحك فهى نكتة !!) .

ثم يملكون كذلك وزارة الدفاع (بجيشها وجنودها) ووزارة الداخلية (بزنازينها وضباطها) ، ووزارة الإعلام (بكل الفوغائية والدعائية) ، ومع ذلك لم يملكوا الحكم ..

هل تعرفون لماذا ؟!

لانهم كانوا نموراً من ورق ، ورق راكتا الردىء ، لم تكن هذه المجموعة تقاتل السادات من اجل منجزات ثورة يوليو (فالكل بما فيهم السادات كان يتمسح بها) ، ولا من اجل الديمقراطية (فكلهم شموليون والحمد لله) ، بل كان صراعاً من اجل السلطة واحتكارها ، وفى ضوء انه صراع السلطة ، فالذى انتصر فيه صار رئيساً اوحد ، ومن فشل فيه فقد كان خائباً وليس خائناً !! كانت هذه المجموعة بلا اى جذور شعبية ولا جماهير حقيقية تحبهم وتريدهم وتقاتل وتناضل من اجلهم ، بل كان الشعب باسره مغيباً عن الصراع : ولم يكن اى مواطن مستعداً للدفاع عن بقاء على صبرى او شعراوى جمعة فى الحكم ، لماذا ..؟!

لانهم لا يريدون صبرى ولا جمعة ولا غيرهما ، ولايحبونهم ولا يعرفون لهم فضلاً يستاهل الخروج فى مظاهرة من ثلاثة انفار تهتف باسمائهم ، لقد كانت التنظيمات الجماهيرية والسياسية التى تحتلها مجموعة مايو ، مجرد تنظيمات سلطوية غير معبرة عن الشعب ولا تتبنى قضاياه ، ولا يعرف الشعب عنهم إلا مجرد شعارات فارغة وهتافات بذلاة تعريفة ، حتى اصحاب المصلحة من الاعضاء العاملة والقيادات المتوسطة والكبيرة فى هذه التنظيمات

كانوا معينين ومختارين بطرق غير ديمقراطية وغير شريفة ومزورة ، فتخلوا عن مجموعة مايو ، وانضموا فوراً للذى يعرفونه ، انضموا للسلطة ولمن يجلس على كرسى الرئاسة ، وقد احسنوا التصرف !!

يُحكى ان رئيس الحرس الجمهوري ذهب لمدير مكتب الرئيس السادات (عبدالناصر سابقاً) وساله إلى من ينحاز فى الصراع ، فقال له : انحاز للشرعية ، واحسب ان هذه الواقعة جرت فعلاً وتماماً ، فالشرعية التى هى السلطة والتى هى الرئيس كانت الهدف الاسمى لكل رجال السلطة ولا ولاء إلا لها ..

وعندما جاء هؤلاء وتصوروا ان مجرد تقديم استقالاتهم فى الإذاعة والتليفزيون كفيل بسحب البساط من تحت اقدام السادات .. كان رد الفعل غاية فى البساطة والجمال .. لم يكن هناك رد فعل .

انتصر السادات .. لانهم لم يكونوا شيئاً جماهيرياً يُذكر ، فضلاً عن انهم - على حد تعبير السادات - لا يعرفون حتى تدبير مؤامرة .

والسادات (لمن يسال لماذا اختاره عبدالناصر) ، كان اكثر فهماً لطبيعة السلطة ولصراعها ومؤامراتها .. فتامر ونجح !!

وقد جاء انتصار السادات إنقاذاً لمصر (وهو كلام كبير سيمتعض البعض منه) ، لكنه انقذ مصر فعلاً من السقوط فى براثن هؤلاء الذين كانوا ادنى إلى تحويل مصر إلى شكل اقرب لجبهة التحرير فى الجزائر (بكل فسادها السياسى التالى) ، بل كذلك اقرب إلى روح إدارة حزب البعث للدول العربية شمولية وديكتاتورية وديماجوجية وغوغائية بلا اى حراك اجتماعى او سياسى .

اما حكاية خيانة السادات للاشتراكيين فهو امر كان يجوز ان يتحدث به احدهم منذ عشرين عاماً ، لكن الان - وبعد كل الذى جرى فى الاتحاد السوفيتى سابقاً - فلا يجوز معه إلا ان نخرس خالص !!

اه بالمناسبة لم يكن السادات ديمقراطياً على النحو الذى يصور به نفسه ، بل كان امتداداً لكل الشمولية التى عرفناها ، لكنه على الاقل وضع الشكل والوعاء الديمقراطى الذى على جماهير مصر ورجالها النضال كل يوم وكل لحظة من اجل تحويله من شكل إلى جوهر ديمقراطى ، واخشى كل مااخشاه ان يزعم احد ان مجموعة مايو او رجال عبدالناصر كانوا ديمقراطيين ، او كانوا زعماء جماهيريين ، او كانوا

رجال دولة الفاذا ، فالرد على هذا الكلام يستوجب قلة حياء منى لا اتمناها .

هناك ايضاً الاتهام الأخر الصالح لكل زمان ومكان ، وهو اتهام السادات بالاستيلاء على خطة حرب اكتوبر التى وضعها جمال عبدالناصر ، واحسب ان اسوا ما فى الظلم هو الإصرار عليه ، فلااحد يستطيع ان ينكر - بالمستندات على راى إخواننا المحامين - ان خطة الحرب تم تعديلها وتغييرها كثيراً حتى استقرت إلى خطة « بدر » التى نفذت فى ٦ اكتوبر ، وانه بكل اسف - ياأصدقائى أعداء السادات - ان صاحب قرار حرب اكتوبر هو السادات ، وان الوحيد الذى انتصر على إسرائيل فى حرب عسكرية (شئنا ام ابينا) هو الرئيس محمد انور السادات ، مهما كرهته او كرهه احد (!!) ، فهذه حقيقة لا إفلات منها ، فضلاً عن انها كانت حرباً رائعة وشريفة وعظيمة ، اما حكاية ان القيادة السياسية - التى هى انور السادات طبعاً - التى خانت القيادة العسكرية فى الحرب ، فهى اقرب إلى روح المناظرات التى تشبه مناظرات احمد ديدات مع القس المسيحى ، فى الشرائط الموزعة على المسلمين ينتصر احمد ديدات ، وفى الشرائط التى توزع على المسيحيين ينتصر القس (....) .

يبقى ايضاً ما يقوله انصار السادات وعاشقوه من انه حرر البلد من الاشتراكية ، او ان اختياره الراسمالى كان سليماً وصائباً ؛ وفى ظنى ان هذا ايضاً ليس دقيقاً فى شىء ، فالسادات لم يتجه إلى الغرب بل انجرف نحوه !

هذه هى المشكلة الجوهرية ان السادات - مرة اخرى - كان حاكماً فرداً او مطلقاً وفرعوناً - على قده - وان قراراته لم تكن تحسب حساباً لشىء سوى عواطفه ورغباته وافكاره .. و .. خلاص .

علاقته بامريكا كانت الوجه الآخر من العملة من علاقة عبدالناصر بالروس ؛ حسناً .. السؤال هل استغل احدهما اياً من العلاقتين لصالحه ام لصالح بلده ؟ ، طبعاً الإجابة من الطرفين - وفى نفس واحد. لصالح بلده .. هما وانصارهما احرار فى ان يقولوا مايريدون ، لكن المنهج واحد ، ان الجميع يلقى بكل شباكه - كلها - وفى لحظة واحدة وبانفرادية ودعائية وغوغائية شديدة ، وبلا اى خطوط رجعة ، حسنا سيقولون ان عبدالناصر جعل الروس يبنون السد العالى والمصانع ، وما إلى ذلك ، لكن الآخرين

سيقولون ان السادات جعل الروس (الروس وليس الامريكان) يقدمون اكثر مما قدموه فى حرب اكتوبر ، عبدالناصر انهزم بسلاح وعلاقات الروس فى حرب ١٩٦٧ ، والسادات انتصر بسلاح الروس - و كرههم - فى ١٩٧٣ .

ثم إن السادات - فى المحصلة الاخيرة - اعاد سيناء المحتلة ، بقوات حفظ سلام او بقوات دولية على الحدود ، ليس مهماً ، المهم ان الفلاح فى سيناء يزرع الآن جنينة تفاح ويرويها فى ساعة العصارى بدون قصف الطائرات ، واننا يمكن ان نذهب فى معسكر مع نقابة الصحفيين للسباحة فى شاطىء العريش (...) اه .. هذا هو المهم .. ان سيناء ، رجعت كاملة لينا ومصر اليوم فى عيد ، .. فعلا .

لم يبع عبدالناصر مصر للروس ، ولم يبع السادات مصر للأمريكان ، كما ان مصر - فى الاول والآخر - ليست للبيع ، لكن كلتا السياستين كما قلنا تعبير عن الانفراد بالقرار وفرضه بقوة السلطان الحر لا برغبة البرلمان الحر (!!) .

ناتى إلى النهاية .. (وانتم تعرفون ان لكل ظالم كما ان لكل حاكم نهاية) .

اقول إننى ضد الصلح مع إسرائيل .. لكننى لست ضد استرداد ارضى بالسلام ، واقول إن ما فعله السادات مع إسرائيل لم يكن خيانة على الإطلاق ،

كانت سياسة ووجهة نظر وروح رجل ارتاى ذلك وقرره وفعله . مختلفون معه ممكن . ضده جائز . لكن لم يكن خائناً ابداً ولن يكون . كما اننا لا نملك إلا اعتبار معاهدة السلام مع إسرائيل حلقة من حلقات الصراع مع الصهيونية . وليست نهاية لهذا الصراع . ربما اهم مانخرج منه درساً فى هذه القضية ان صراعنا الجذرى والحقيقى مع إسرائيل هو الصراع الحضارى . وإذا سمحتم لى فالحل يبدا دائماً من الديمقراطية .. إذا نجحت مصر فى ان تكون بلداً ديمقراطياً فإن كل ما هو آت من صراع سهل بكل مافيه من صداع ..

أما الذى لا يغفره احد للسادات - فى ظنى - فهو ما فعله مع التيار الدينى وتربية الثعلب فى بيت الدجاج : حيث « ربى » الجماعات الدينية فى « السلطة والحركة السياسية » .. إن السادات اكثر وافاض فى رفع شعار « لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين » . ومع ذلك فهو اول من كسر وحطم ومزق هذا الشعار ونفذ عكسه تماماً : وكادت مصر كلها تروح فى داهية من جراء هذا العبث السياسى بالدين .. وعندما نلقى الله جميعاً يوم العرض عليه فإننى ساشكو لله ما فعله السادات .. ويغفر الله لنا وله .. وللخطائين التوابين .. امين